8. بعض عادات وتقاليد سلاطين المماليك

التقاليد عند السفر :

(– – كان من رسوم السلطان في خروجه إلي سرياقوس وغيرها من الأسفار ألا يتكلف إظهار كل شعار السلطنة بل يكون الشعار في موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم عليهم واستاداره ، وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن ، وأما هو نفسه فإنه يركب معه عدة كبيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص ، وجمله من خواص مماليكه ، ولا يركب في السير برقبة ولا بعصائب بل يتبعه جنائب خلفه ويقصد في الغالب تأخير النزول إلي الليل فاذا جاد الليل حملت قدامه فوانيس كثيرة ومشاعل فاذا قارب مخيمه تلقي بشموع موكبية في شمعدانات كفت ، وصاحت الجاويشية بين يديه ، ونزل الناس كافة إلا حملة السلاح فإنهم وراءه والوشاقية أيضاً وراءه وتمشي الطبردارية حوله

حتي إذا وصل القصور بسرياقوس أو الدهليز من المخيم ، نزل عن فرسه ودخل إلي الشقة وهي خيمة مستديرة متسعة ثم منها إلي شقة مختصرة ثم منها إلي اللاجوق ، وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخل سور خركاه ، وفي صدر اللاجوق قصر صغير من خشب برسم المبيت فيه ، وينصب بإزاء الشقة الحمام بقدور الرصاص والحوض ، علي هيئة الحمام المبني في المدن إلا أنه مختصر

فإذا نام السلطان طافت به المماليك دائرة بعد دائرة ، وطاف بالجميع الحرس وتدور الزفة حول الدهاليز في كل ليلة وتدور بسرياقوس حول القصر في كل ليلة مرتين : الأولي منذ يأوي إلي النوم والثانية عند قعوده من النوم ، وكل زفة يدور بها أمير جاندار وهو من أكابر الأمراء وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول والبياتة وينام علي باب الدهليز النقباء وأرباب النوب من الخدم ، ويصحب السلطان في السفر غالب ما تدعو الحاجة إليه حتي يكاد يكون معه مارستان ، لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجري مجري ذلك ، وكل من عاده طبيب ووصف له ما يناسبه ، يصرف له من الشراب خانه أو الدواء خانه المحمولين في الصحبة ، والله أعلم

وكان من مصطلح الملوك أن تكون تفرقة السلطان الخيول علي الأمراء في وقتين أحدهما عندما يخرج إلي مرابط خيله في الربيع عند اكتمال تربيعها وفي هذا الوقت يعطي أمراء المئين الخيول مسرجة ملجمة بكنابيش مذهبة ويعطي أمراء الطبلخانات خيلا عريا ، والوقت الثاني يعطي الجميع خيولا مسرجة ملجمة بلا كنابيش بفضة خفيفة وليس لأمراء العشراوات حظ في ذلك إلا ما يتفقدهم به علي سبيل الإنعام ولخاصكية السلطان المقربين من أمراء المئين وأمراء الطبلخانات زيادة كثيرة من ذلك بحيث يصل إلي بعضهم المائة فرس في السنة)[56]

---

[56] نقلاً عن كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية – الجزء الثالث – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي – من صفحة 31 وما بعدها

التقاليد عند الركوب إلي الميدان :

(- - كان من شعار السلطان أن يركب إلي الميدان وفي عنق الفرس رقبة حرير أطلس أصفر بزركش ذهب فتستر من تحت أذني الفرس إلي حيث السرج ويكون قدامه اثنان من الأوشاقية راكبين علي حصانين أشهبين برقبتين نظير ما هو راكب به ، كأنهما معدان لأن يركبهما ، وغاشية السرج محمولة أمام السلطان وهي أديم مزركش مذهب يحملها الركابدارية قدامه ، وهو ماش في وسط الموكب ، ويكون قدامه فارس يشبب بشبابة لا يقصد بنغمها الإطراب ، بل ما يقرع بالمهابة سامعة ومن خلف السلطان الجنائب وعلي رأسه العصائب السلطانية وهي صفر مطرزة بذهب بألقابه واسمه

وهذا لا يختص بالركوب إلي الميدان بل يعمل هذا الشعار أيضاً إذا ركب يوم العيد أو دخل إلي القاهرة أو إلي مدينة من مدن الشام ويزداد هذا الشعار في يوم العيدين ودخول المدينة برفع المظلة علي رأسه ويقال لها الحبر وهو أطلس أصفر مزركش من أعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة ، يحملها يومئذ بعض أمراء المئين الأكابر وهو راكب فرسه إلي جانب السلطان ، ويكون أرباب الوظائف والسلاحدارية كلهم خلف السلطان ، ويكون حوله وأمامه الطبردارية وهم طائفة من الأكراد ذوي الإقطاعات والإمرة ويكونون مشاة وبأيديهم الأطبار المشهورة)[57]

وصف عودة السلطان من رحلة الحج :

مثال علي ذلك وصف عودة السلطان الأشرف قايتباي من رحلة الحج كما ورد بكتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس الحنفي حيث كتب : - - وفيه قدم مبشر الحاج وهو شخص من الخاصكية يقال له اسنباي وقد استمر اسمه بالمبشر بعد ذلك فأخبر بسلامة السلطان وأنه دخل إلي مكة في موكب حافل وكان له يوم مشهود ، ولقاه أمير مكة من مسيرة يومين ، ، وأنه تصدق علي فقراء بمكة بخمسة آلاف دينار ، وتواضع تواضعاً وخضوعاً إلي الغاية ، وكان بطول الطريق لا يتكلم في شئ يتعلق بالأحكام بين الناس وفعل في الطرقات أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف فحصل لاسنباي المبشر جملة خلع ، ومالا له صورة ، من الأمراء وأعيان الناس ، ومن خوند زوجة السلطان وغير ذلك من أرباب الدولة ،

وفيه جهز الأتابكي أزبك ويشبك الدوادار وجماعة من الأمراء إقامات لملاقاة السلطان من العقبة ، وخرج الأمير أزبك اليوسفي أحد الأمراء المقدمين صحبة ذلك ، وخرج معه جماعة كثيرة من أرباب الدولة لملاقاة السلطان من العقبة ، واهتم الأمير يشبك الدوادار ببياض أماكن بالقلعة ودهان أبوابها وضرب الرنوك عليها وجلا واجهة القصر الأبلق وما يليه حتي ظهر رخامه الملون وقد احتفل في إصلاح ذلك جداً ،

سنة خمس وثمانين وثمانمائة (1480م) : فيها ، في المحرم بعث السلطان نجابا إلي الأمراء وأخبر النجاب بأن السلطان دخل إلي المدينة الشريفة ، علي صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وزار النبي صلي

---

[57] نقلاً عن كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية – الجزء الثالث – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي – من صفحة 31 وما بعدها

الله عليه وسلم وأنعم علي الفقراء الذين بها بخمسة آلاف دينار ، وأنه رحل نحو الينبع قاصدا للعقبة ، ثم رحل عنها وهو واصل عن قريب ، ثم رسم لهم بألا يخرج لملاقاته أحد من الأمراء ، وأن السلطان ينزل بقبة الأمير يشبك التي بالمطرية فبادر الأمراء بالخروج إلي هناك ونصبوا الخيام ، ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل إلي البويب فلما تحقق الأمراء ذلك ركب الأتابكي أزبك والأمير يشبك الدوادار وبقية الأمراء من المطرية وتوجهوا إلي ملاقاة السلطان ، فلما وصلوا إلي البويب اجتمعوا بالسلطان هناك وساروا قدامه حتي وصل إلي الوطاق الذي بالمطرية ، وكان له هناك موكب حافل ، وكان دخوله في ثاني عشر المحرم قبل دخول الحاج بثمانية أيام ، فلما نزل بقبة الأمير يشبك مد له الأمير أزبك الأتابكي هناك مدة حافلة جداً وبات السلطان هناك وبات عنده قضاة القضاة ومشايخ العلم وهنئوه بقدومه

فلما كان يوم الاثنين رابع عشر ركب السلطان من هناك وحمل الأتابكي أزبك علي رأسه القبة والطير ، وركب قدامه الأمراء والعسكر وهم موكبون كالأعياد ، وسارت الأمراء والقضاة الأربعة قدامه ، فدخل من باب النصر ، وشق من القاهرة ، وقد زينت له زينة حافلة ، واستمر في هذا الموكب العظيم ، وطلب طلبا حافلا ولعب قدامه بالغواشي الذهب وكان له يوم مشهود إلي أن طلع إلي القلعة ، فلما طلع فرشت له خوند عدة شقق من باب القلعة إلي الحوش ، ونثرت علي رأسه خفائف الذهب والفضة وتوشحت الخدام بالبنود الذهب والحرير الأصفر ، وتخلقت بالزعفران ، فلما دخل السلطان إلي الحوش ، مد له هناك الأمير يشبك مدة حافلة أعظم من مدة الأتابكي أزبك التي مدها له بالقبة ، ثم أن السلطان خلع علي من كان معه من أرباب الوظائف ونزلوا إلي بيوتهم وانفض ذلك الموكب ، وعدت هذه الحجة من النوادر الغريبة ، ودخل عليه جملة تقادم من مال وتحف تعدل مائتي ألف دينار من أمير مكة وقضاتها ، ومن أمير الينبع وغير ذلك وقد نظم الشعراء في هذه الواقعة عدة قصائد ، فمن ذلك :

قدم السرور بمقدم السلطان ،،، من حجه المقبول بالرضوان
سلطاننا الملك الهمام الأشرف ،،، الراقي سماء الحسن والاحسان
فهناؤنا ببقائه ، في نعمة ،،، وسلامة فرض علي الأعيان
لما نوي حجا ولبي محرما ،،، عم الأمان مراتع الغزلان
والوحش في أبياتها والدوح في ،،، أنباتها والطير في الطيران
ثم الصلاة علي النبي المصطفي ،،، عدد الرمال بجملة الكثبان

فلما استقر السلطان بالقلعة ، أخذ في أسباب تفرقة الهدية علي الأمراء ، فابتدأ بالأتابكي أزبك ثم بقية الأمراء كل من هو في منزلته ، ثم المباشرين وأرباب الدولة ، وكان الأمراء والمباشرون قدموا للسلطان أيضاً تقادم حافلة ، ما بين مال وخيول وقماش وغير ذلك

الاحتفال بفتح السد ووفاء النيل :

ولتوضيح ذلك سنورد بعض سطور من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لأحمد بن محمد بن إياس الحنفي المصري حيث كتب ما يلي : - وفي يوم الخميس المقدم ذكره صنع السلطان – الأشرف قنصوة الغوري – وليمة حافلة بالمقياس ، واجتمع بها القضاة الأربعة ، وأعيان الناس من العلماء وغير ذلك ، ومد هناك الأسمطة الحافلة ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة حافلة ، والسلطان كل سنة يصنع مثل ذلك بالمقياس قرب وفاء النيل ،

وفي سنة عشر وتسعمائة صنع وليمة بالمقياس مثل هذه فزاد الله تعالي في النيل المبارك تلك الليلة خمسين أصبعاً دفعة واحدة ، فعد ذلك من النوادر ، وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه حضر إلي الأبواب الشريفة الأمير طومان الدوادار ، وكان له مدة وهو مسافر في الصعيد بسبب ضم المغل ، فلما كان يوم الأحد بلغ السلطان وصوله إلي الجيزة فنزل إلي المقياس ولاقاه من هناك ، وكذلك قاصد ابن عثمان ، فلما طلع إلي القلعة يوم الاثنين المذكور خلع عليه السلطان خلعة حافلة ، ونزل من القلعة في موكب مشهود ، وصحبته سائر الأمراء المقدمين والمباشرين وأعيان الناس ، واستمر علي ذلك حتي دخل إلي داره ، وخلع عليه السلطان في ذلك اليوم فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض ، ومشت الأفيال وهي مزينة قدامه في ذلك الموكب وشق من الصليبة ، وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرينه توفي الأمير ماماي جوشن أحد الأمراء المقدمين الألوف ، وكان رئيساً حشماً جميل الهيئة قليل الأذي بين الأمراء ، ومات وهو في عشر الستين ، وقيل أصله من مماليك الظاهر خشقدم من كتابيته ، واشتراه الأشرف قايتباي من بيت المال وأعتقه فهو من جملة معاتيق الأشرف قايتباي ومن مماليكه ، فلما بلغ السلطان وفاته نزل وصلي عليه ، وكانت جنازته مشهودة رحمة الله تعالي عليه ، وفي يوم الثلاثاء المذكور كان وفاء النيل المبارك ، أوفي بعد الظهر ، وعلق الستر علي شباك القصر الذي أنشأه السلطان علي بسطة المقياس ، وقد أوفي الله الست عشرة ذراعاً وأصبعين من سبع عشرة ، ووافق ذلك ثاني عشرين مسري ، وقد أبطأ هذا النيل عن نيل السنة الماضية بسبعة أيام ، وكانت الناس بسببه في غاية الاضطراب ، وفي يوم الأربعاء رابع عشرينه ، الموافق الثالث عشرين مسري ، فتح السد وكان يوماً مشهوداً قل أن يقع مثله في الفتك والفرجة ، ورسم السلطان للأتابكي سودون العجمي بأن يتوجه ويفتح السد علي العادة ، فكان له في ذلك موكب حافل ، وخلع عليه السلطان فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض ، وحصل للناس غاية الجبر بكسر السد في ذاك اليوم ، وقد قيل في المعني :

كسر الخليج وكان ذلك نعمة سرت قلوب العالمين لبشره

ومن العجائب والغرائب أنه جبرت قلوب المسلمين لكسره

ووافق أن النيل زاد بعد فتح السد بيومين عشر أصابع في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الثالث من فتح السد زاد الله في النيل المبارك احدي عشرة أصبعاً في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الخامس من فتح السد

زاد سبع أصابع فزاد ست عشرة أصبعاً من ثماني عشرة ذراعاً وذلك في أواخر مسري بعد الوفاء بخمسة أيام ، فعد ذلك من النوادر ، وفي رجب كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ، فجلس السلطان في الميدان ، وطلع إليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر ،

وقفة عند المؤرخ ابن اياس الحنفي :

يعتبر ما كتبه ابن اياس هو المرجع الذي يعتمد عليه الكثيرون للتعرف علي العصر المملوكي ولذلك سنستعرض معاً وصف أسلوبه في الكتابة حتي يتضح لنا الكثير عنه وعن عصره ، فيقول الأستاذ محمد عبد الله عنان عن ابن اياس مايلي : (، ، ، وفي هذا القسم من روايته ، أعني تدوين حوادث عصره ، وهو يشمل زهاء نصف قرن ، من أواخر القرن التاسع إلي سنة 928هـ ، يبدي ابن إياس نوعاً من الطرافة والبراعة ، ويبدي بالأخص دقة في الملاحظة ، ومقدرة لا بأس بها في تحليل الأنفس والعواطف ، وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلي سير الحوادث نفسها وإلي المفاجآت والوقائع الغريبة التي قدر للمؤرخ أن يشهدها في خاتمة حياته ، فهي التي تغذيه خلال روايته بما يلاحظ وما يعلق ، ونستطيع بالأخص أن نستخرج من رواية ابن إياس خلال المجتمع المصري في هذا العصر ، وأن نتعرف هذا المجتمع المستهتر الطروب في بعض أثوابه الحقيقية ، وأن نقرأ في سلوكه وتصرفاته كثيراً من عواطفه وميوله وبوادر نفسه ، وأن نقف علي صور شائقة من عاداته وأحواله الاجتماعية ، وهذا ما تعرضه رواية الحوادث ذاتها ، ولكن لابن اياس فضلاً في ذلك ، هو أنه يعني في كثير من الأحيان بتدوين بعض أحوال الحياة الخاصة ، وتتبع آثار الحوادث في نفس الشعب وطبقاته الإجتماعية المختلفة ، فنري في روايته ، طبقة الأمراء والأرستقراطية تتحكم في سائر الطبقات اجتماعياً واقتصادياً ، ولا تبحث إلا عن تحقيق أهوائها ورفاهيتها ، عاش الناس أم هلكوا ، ونشعر بوحي القضاة وغيرهم من رجال الدين واضحاً في سياسة السلاطين ، كما نراهم سند السلاطين في إباحة المصادرة ونهب الأرزاق والأموال ، وإصدار ما يحقق أهواءهم من الفتاوي والأحكام ، ونري الطبقة المتوسطة منكمشة لا تكاد تأخذ بقسط في مجري الحوادث ، أما الطبقة الدنيا أو العامة فنراها صاخبة فائرة ، تظهر في طليعة كل اضطراب ، ولكنها كعادتها تهدأ وتختفي أمام القوة ، ويتتبع ابن إياس حركات العامة بصفة خاصة ، فيصف سلوكهم ونزعاتهم وعواطفهم من غضب ورضى ومرح واكتئاب ، في نبذ ممتعة كثيراً ما تثير الابتسام ، أما نظم السياسة والحكم والتشريع والإدارة فيعرضها ابن إياس في سياق روايته خير عرض ، فيشرح لنا كيف كان يلي السلطان العرش ويباشر الحكم بنفسه أو علي يد خاصته وأمرائه ، وكان نظام البلاط والحكومة يومئذ من أغرب النظم الملوكية التي عرفت ، يمتزج فيه التشريع والتنفيذ والقضاء ، وسلطات الحرب والمالية في صعيد واحد ، - - - ونري مما يذكر إلي أي حد كانت دولة المماليك الشراكسة تمعن في المركزية والاستئثار بالسلطات - - - كذلك يصف التقلبات الاقتصادية من غلاء ورخاء ، ، وعلي الجملة فإنه يصور لنا في سياق روايته مجتمع عصره سواء في الحياة العامة أو الخاصة أو في الخلال والعادات ، والميول والأهواء تصويراً قوياً شائقاً ، وكانت حوادث الفتح العثماني

آخر ما دون قلم ابن اياس فهو يصل في روايته حتي خاتمة سنة 928هـ – 1522م – ونحن نعرف أن المؤرخ توفي بعدئذ بقليل سنة 930هـ – – فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة سجلا يوميا مسهباً يستند إلي تحقيق المعاصرة والمشاهدة ، وهو لا يمهد فيه إلي الحوادث ، ولا يعني بربطها بل يدونها مرسلة كما وقعت ويحصي آثارها إحصاء من رأي وسمع ، وكل ما هنالك ان ابن اياس يطلق العنان لشعوره وعواطفه ، فنراه يحمل علي السفاكين والظلمة في عبارات شديدة وأحياناً مؤثرة ، – –

ويفيض في تفاصيل الواقعة الهائلة التي نشبت بين الغزاة وبين الجيش المصري في مرج دابق سنة 1516م وما أوقعه الغزاة بعسكر مصر من سفك ونهب ، ويصف صدي النكبة في القاهرة وكيف قام "نعي السلطان في ذلك اليوم ونعي الأمراء والأعيان الذين قتلوا وصار في كل حارة وزقاق وشارع في القاهرة صراخ وبكاء ، ورجت القاهرة وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القيل والقال" ثم يقف المؤرخ قليلاً ليصف السلطان الغوري وخلاله ويعدد مثالبه ومآثره وينظم في ذلك قوله :

طالعت تاريخ الملوك فلم أري فيما سمعت حوادثاً مما جري
لا زالت الأيام يبدو فعلها بعجائب وغرائب بين الوري
لكن هذه وقعة ما مثلها سبقت لسلطان ولا متأمرا
والأشرف الغوري كان مليكنا لكنه قد جار فينا وافتري
أعماله ردت عليه بما جني والدهر جازاه بأمر قدراً)[58]

وبعد أن استعرضنا بعض تقاليد وعادات سلاطين المماليك سوف نستعرض أهم الأحداث التي وقعت في عصر المماليك اعتباراً من الفصل القادم إن شاء الله

<u>ملخص عام لعصر المماليك :</u>

تولي سلاطين المماليك حكم مصر لمدة حوالي 267 سنة (– وقد انقسمت فترة حكم المماليك لمصر إلي مماليك بحرية استمرت من 650 هـ / 1252 م إلي 784 هـ / 1382 م ثم تلتها المماليك البرجية أو الشركسية وهم سكان أبراج القلعة والتي انتهت بالفتح العثماني لمصر علي يد السلطان سليم الأول في 932 هـ / 1517 م)[59] ، (وتولي سلطنة مصر 27 ممن المماليك البحرية و 28 من المماليك البرجية)[60] وبالتالي يكون مجموع ملوك وسلاطين المماليك 55 سلطاناً مملوكياً

---

[58] من كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان 1896–1986 – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة 1998 – مقتطفات من صفحة 219 وما بعدها

[59] موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة 93

[60] موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة 94